الفصل الأول
في نور القرآن الكريم
والسنة المطهرة

المطففون

كان لأحدهم صاعان :

يكيل للناس بكيل . . ويكتال لنفسه بالآخر . .

ما الذي جرأهم على التطفيف ؟

عدم إيمانهم بالآخرة . . وإلا . . فلو آمنوا باليوم الآخر لعدلوا . .

وكان من دأبهم :

أنهم كانوا يتغامزون بحواجبهم . . ثم يعيرون المسلمين بالإسلام ، معجبين بما حققوه هم من كسب حرام . . سوف يكون وبالا عليهم.

خطة المسلم :

خطة المسلم اليومية :

أن يتحرك . . منجزا عهده مع الله عز وجل : عبادة وذكرا.

وعهده مع الحق : تجلدا وصبرا.

ولكن . . في مرحلة من مراحل الدعوة . . يصل إلى طريق مسدود . .

ويزحف الأسى نحو قلبه . . ولكنه يستعلى على الموقف بالهجرة. . والتى تم بها النصر الأكبر .

لقد كان المشركون لا يطففون الكيل والميزان فقط ولكنهم كانوا يطففون في أقدار الناس : انطلاقا من غرورهم بأنهم الأفضل بينما غيرهم مواطنون من الدرجة الثانية!!

وكان لابد من حسم الموقف مع هؤلاء مهما كانت التكاليف :

فلابد من إبر النحل . . من أجل العسل . .

لابد من العمل . . سبيلا إلى تحقيق الأمل . .

جزاء المطففين :

ما تصوروه مغانم هو في الواقع مغارم : ويكفى أن تكون النهاية هى : الويل! :

والنهاية متسقة مع البداية :

فقد كانوا ظالمين : عمقا ، واتساعا . .

عمقا : بدليل حرف الجر « على » وما يعنيه من الاستعلاء. .

واتساعا : لأنه كان مع « الناس » جمعا وليس مع فريق معين.

لقد فاتهم « التدين » الحق . . بظلمهم . . ثم فاتتهم المروءة . . حين باعوا ضمائرهم ثمنا لشيء تافه حقير .

الكلمة الطيبة

يقول الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم : ٢٤، ٢٥] .

علق واحد من الأدباء على الآيتين الكريمتين فقال :

الكلمة الطيبة : بذرة : تتحقق في كيان الإنسان ، فإذا هي وقد أورقت ، ثم أزهرت ، ثم أثمرت .

وقلت له :

ولكن القرآن يجعلها ابتداء كشجرة : ضاربة الجذور في الأرض . . وفرعها ساحق . . في السماء . . دائمة العطاء . .

فمن تكلم بها . . خرجت منه شجرة على هذا النحو . . والمستمع إليها . . مستمتع بها في نفس اللحظة : وبلا انتظار الإثمار !؟

من دلائل عظمة الخالق تعالى

يقول عز وجل : ﴿ الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ [الرعد] .

دليل قدرة الله عز وجل . . أما دليل إرادته فهو قوله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾

فالأرض : تسقى بماء واحد . .

ومع ذلك : نفضل بعضها على بعض في الأكل . .

والبشر أيضا . .

مع أنهم أبناء آدم وحواء . . لكنهم يختلفون . . فلنتعامل معهم بما يناسب مقتضى الحال ، ولا نعرض عليهم أسلوبا واحدا . .

الأمـل .. والعمـل

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً ....﴾ [الملك] .

وواجبنا هو :

﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ .... ﴾ [الملك : ١٥] .

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ..﴾ [الجمعة: ١٠].

واتقوا الله وأجملوا في الطلب . .

فأنتم أمة الوسط :

﴿ لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [المنافقون : ٩] .

وهكذا كان سلفنا الصالح:

﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [النور : ٣٧] .

الأسباب والمسببات

ربط الله تعالى الأسباب بالمسببات :

إقامة للعدل . .

وإحكاما للنظام . .

وتنزها عن العبث .

[الأنعام : ٩٩] الآية .

ذكر من الدلائل :

١ـ ما به قوامه . . وهو الزرع

٢ـ وما به تفكهه . . وهو الزيتون . .

لكن دلالة هذه النعم تحتاج إلى تفكير . . ولهذا قصد الاهتداء على المتفكرين.

وعلى الإنسان أن يشكر :

١ ـ نعمة خلقه ابتداء.

٢ ـ ثم نعمة وصفه فى أصح البيئات لجسمه وعقله وروحه :

إنها دلائل . . للعقل . . وتذكير . . يحمل على الشكر .

يقول الله عز وجل :

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٣] .

أحيانا . . يصرح القرآن بالفعل دون الترك :

وكان ذلك تسهيلا على المكلفين ليقبلوا على المأمور به . . ثم يقبلوه . .

ذلك . . بأن الفعل وإن كان صعبا . . . أيسر على النفس من الكف عما يشتهى

يقول الله عز وجل :

﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٨] .

يحرص الإسلام على أن تظل البيئة نظيفة :

يتنفس الناس فيها قيم : الطهر . والسلام والأمن .

فإن تجرأ ظالم مستهترا بهذه القيم . . فمن حق المظلوم أن يرد عليه .

أولا : تنفيسا عن غيظه المكتوم .

وثانيا : ردعًا للظالم . .

وحتى يتكون رأى عام يتصدى لهذا الذى اعتدى على المجتمع فى شخص واحد منه .

وقد كانت هناك وقفات . . . أمام مثل هذه المبادرات . . . ومن ذلك ما روى :

قيل لرجل :

لست من المهاجرين الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ

أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الحشر :٨]

كما وأنك لست من الأنصار الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الحشر : ٩]

فإذا لم تكن من هؤلاء ولا أولئك . . . فكن من الذين قال الله تعالى فيهم :

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

من دروس القرآن

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾ [الزمر :٣٢] .

قد تسمع عبر « الهاتف » صوتا يناديك . . فترد عليه . . . ولكنه لا يسمعك وقد يسمعك . . ولكنك لا تسمعه . .

وهذا خلل فى الاستقبال أو فى الإرسال . . وهو خلل متوقع . ومحتمل . .

أما أن يكون الخلل فى الاستقبال والإرسال معا فهو البلاء المبين . . . وهو

لمهم شديدا :

. يكذبون .

. ندتوا لا يصدقون . . بل يُكذِّبون فالإرسال والاستقبال عندهم مفقود

يقول الزمخشرى عن تفسيره :

إن التفاسير فى الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمرى مثل كشافى إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء . . . والكشاف كالشافى والرجل منطقى مع نفسه . . فالكتاب « بنات » أفكاره . . وبنات الوالد - مهما كانت درجات جمالهن فهن فى عينه أجمل بنات الدنيا . .

بل إن كثيرا من العلماء أشادوا به . . ورفعوه فكانا عليا . . .

ولكن الزمخشرى بالغ فى تقديره . . .

وقصارى كتابة أن يكون واحدا من تفاسير متعددة تغطى ناحية من نواحى الإعجاز القرآنى :

فإذا كان هناك من تحدث عن الإعجاز النفسى . . ومن بين ملامح الإعجاز التشريعى والإعجاز التاريخى . . فإن « الكشاف » كان بجدارة مرآة الإعجاز البلاغى . . فكان فى جوهره إجابة عن هذه الأسئلة :

لم قدم . .ولم أخر . .؟

لم أظهر . .ولم أضمر . .؟

لم أنث . .ولم ذكر . .؟

لم جمع . .ولم أفرد . .؟

لماذا أطنب هنا . . وأوجز هناك . . وقد حقق بذلك هدفين عظيمين :

الأول : أذاق الدارسين طعم البلاغة القرآنية فأقبلوا على دراسة القرآن مشرقين .

والثانى : أنه أثبت أن هذا القرآن كلام رب العالمين حقا .

ومن سلبياته :

١- أنه يخضع الآية أحيانا لمذهبه الاعتزالى مع أن من قال فى القرآن برأيه فهو مخطئ ولو أصاب .

٢- بالغ فى الهجوم على الأولياء .

٣ ـ جرّح زملاءه المفسرين . .

٤- وخص أهل السنة بمزيد من الهجوم والافتراء .

ويعنى ذلك تجريد الأمة من رموزها . .لتبقى الأمة بلا تاريخ . . .

ويعنى أيضا أنه لم يكن موضوعيا فى حكمه على خصومه . الذين هاجمهم بأسلوب الشطار . لا بأسلوب الأبرار .

ومن الوفاء للكتاب وصاحب الكتاب أن تذكر قصة ميلاده ..تبصرة للباحثين من شباب اليوم :

فلقد كان مقررا أن يخرج هذا الكتاب على الناس بعد مضى ثلاثين عاما . .

ولكنه أنجزه فى ثلاث سنين تقريبا .

وهو درس للمتسرعين من باحثى اليوم والذين يريدون الحصول على الشهادة ولو لم يعدوا للمعركة سلاحها .

ولقد استعد له « الزمخشرى » برصيد ضخم من الإمكانات هى :

ذكاؤه اللماح . . .

ثم رحلاته عبر آفاق الدنيا والتى زودته بمعارف لاتنال من الكتب . .وقيل ذلك بمزيد من المعارف والمختلفة . .والتى لابد منها للمفسر الذى يجب أن يكون موسوعيا ولا يكفى للقدرة على التفسير تفوق الباحث فى فرع واحد من فروع المعرفة ، فلا يقدر على ذلك من كان أو نمط من الحسن . .ولا من كان أنحى من سيبويه . .

ولا بد فوق ذلك من التبحر فى مختلف العلوم ليستطيع النهوض بهذه المهمة العظمى .

أما بعد :

فصحيح أن الزمخشرى كان اعتزاليا حتى النخاع . . إلى الحد الذى كان يقول لمن يستأذنه فى الدخول على واحد من الولاه : قل له : بالباب أبو القاسم المعتزلى . .ومع هذا فقد قدم إلى المسلمين خدمة جليلة بهذا السفر العظيم .

وهو درس للمتحمسين ألا يطلقوا الأحكام على الناس إطلاقا عشوائيا .

لاسيما على فرد قد تكون فى حياته جوانب مضيئة تتفاضاهم أن ينوهوا بها . .

وقد نختلف مع الزمحشرى فى مذهبه السياسى . . أو المذهبى . .

ولكن الاختلاف . .وإن لم يظفر فيه بحبنا . .فمن حقه أن نمنحه تقديرنا واحترامنا .

والبقاء للأصلح .

ويبقى الدين أساسا للحضارة . . بل سابقا عليها :

وذلك قوله عز وجل :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ . . . ﴾ [المائدة : ٢٧] .

ولقد كان الرسل عليهم الصلاة والسلام رواد هذه الحضارات : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر : ٨٣] .

﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [غافر : ٥] .

وهذا هو معنى صدام الحضارات :

صدام الكامل . . . بالناقص . .

صدام الهوى . . بالهوى . .

وبقى الدين الكامل . . وسيبقى :

عقيدة : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٨] .

وشريعة : ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ [المائدة : ٢٧] .

وأخلاقا : ﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ﴾

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ ﴾ [البقرة: ١٨٧] .

وهذا من واقعية الإسلام :

إنكم لباس :

فكيف مع هذا تتقون المباشرة !!

المهم .

ابتغوا ما كتب الله لكم وهو : الولد . . لا مجرد الشهوة :

وبالولد . . يدوم الزواج . . .

أما مجرد الشهوة فظل زائل .

﴿ . . . حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ﴾ [البقرة: ١٨٧] .

وهناك حقيقة اجتماعية مشتقة من الآية الكريمة وهى :

ليستمر حكمكم بالخيرية علما من تظنونه كذلك . . ولا تسارعوا فى التنازل عن ظنكم الخير فيه . . . حتى يتبين لكم الخيط . . . وتتأكدوا تماما .

قال الفتى ما هو تعليقك على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة : ٦٩] .

ثم استطرد : قل لنا فى الآية الكريمة قولا شافيا . . بعد أن كنَس الله تعالى كل الفئات إلا من آمن !!!

وقلت له على الفور :

إن الآية الكريمة لم « تكنس» ولكنها تؤنس !!

إنها تفتح الباب لكل راغب فى السعادة ومهما كان دينه أو مذهبه . . . إنها تفتح ذراعيها لكل راغب فى الكمال أن يغير اتجاهه . . آخذا سمته إلى حيث يكون الخير هناك . .

وليت شعرى . . . لو أن هذا الحماس وضيق الأفق تفرد بالساحة لما دخل الإسلام أحد .

ولكن الله عز وجل . . فتح الباب لكل راغب . . فدخل الناس فى دين الله أفواجا . . .

وكان كل فرد عن هؤلاء الداخلين فرعا فى شجرة . . . لا يهزها إلا هو . . ولا يقدر على إحراجها إلا من يفهم لغة التخاطب معها :

المغرور .

فى مرآة القرآن .

يقول الله عز وجل :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [لقمان: ١٨] .

إن المغرور من فرط اعتزازه برأيه يصعر خده . . . شامخا به :

قال أبو الدرداء :

(إذا رأيت تعرة الناس . . ولا تستطيع أن تغيرها . . فدعها . . حتى يكون الله جل وعز يغيرها) « الغريب لابن قتيبة » .

والتعرة : ذباب أزرق . له إبرة يلسع بها . وربما دخل فى أنف البعير . فيركب رأسه . فلا يرده شيء .

والعرب تشبه المتكبر إذا صعر خده . وركب رأسه ، ومضى على الجهل . لا يرده شيء ، : بذلك البعير .

الأحق بالأمن

النفس المؤمنة هى : الآمنة . . لأن الخوف من الله يمنع الخوف من الآخرين :

إنها النفس الحرة .

وليست الحائرة . . .

إن الحيارى : يموتون مبكرين .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف: ٦٥] .

أو عجبتم ؟

العجب من عجبكم !!!

١- لقد جاءكم . . ولم يكلفكم السعى إليه .

٢- ذُكر : يذكركم بما هو مستقر فى فطرتكم .

٣- ثم هو من ربكم .

٤- وهو . .لكم . .خاصة . .

٥- لا ليضحككم . .ثم فى النهاية يضحك عليكم . .ولكن لينذركم شفقة بكم

يقول عز وجل :

﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣] . . لماذا ؟

١- الرسول ﷺ زعيمكم بحكم الشرع .

٢- مبلغ عن الله تعالى . . . فلا حظ لنفسه

٣- ودعاؤه لأمر جامع : لمصلحة عامة .

٤- ولذلك :

وجب إجلال دعائه لكم وبخاصة فى الأمور المهمة ثم المسارعة إلى طاعته

أما دعاؤكم أنتم . . . فليس كذلك .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣١] .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

ضرورة فهم طبيعة الإنسان :

مثال : الإنسان [ليعالج بالتدرج] .

الربا :

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا..... ﴾ [الروم : ٣٩] .

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾ [البقرة : ٢٧٥] .

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ﴾ [البقرة : ٢٧٨] .

مفارقـــات

إنكم تعملون دائما بالزراعة وفي الحقل . . . مخافة الجوع .

فلماذا لا تعملون بهذا الدأب للدين !!!

إنكم تعرفـون الخسـارة اللاحقة بزراعـتكم لكنكم لا تعرفـون الخسارة اللاحـقه بدينكم. لا داعى للإسراف فى اللوم .

يحاول الإنسان اسـترجاع الضائع مـتى عرف قيمتـه . . ومطلوب من الدعاة أن ينبـهوا الإحـساس بأن نـعمـة جليلة ذهبت عنه [بدل الإسـراف اللائم] فإذا وجـه الإحساس بفقدان نعم جليلة بدأنا التقدم . . وهو واجب الدعاه .

يقول عز وجل :

﴿ . . وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢] .

إتمام لنفى أحوال الغناء كلها .

لا فدية من مال

ولا كفيل

ولا شفيع

المسئولية الفردية

يقول عز وجل :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨]

لو أطاع الناس جميعا . . . مـا نفعتك طاعتهم . . ولو عصوا جمـيعا ما ضرتك معاصيهم .

أهمية الإيمان بالغيب

إن غياب الإيمان بالغيب يترتب عليه من الفساد ما الله به عليم :

أ - فساد فى العقيدة .

﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٧]

ب ـ فساد فى المعاملات : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين : ١]

ولا حظ فى الآية الكريمة تقديم « الإيمان بالغيب » على « إقام الصلاة » وإيتاء الزكاة :

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٣]

يقول عز وجل : ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥] .

قالوا : [التعبير بالمجهول دليل على أنه لا يصدر عن ذات عاقلة .

ولكنه مفروض قسرا . . . من الخارج]

شياطن الإنس

خطة شياطين الإنس كما رسمها لهم شيطانهم :

العُرْى . . .

يقول عز وجل :

﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ...﴾ [الأعراف : ٢٧]

والبقاء للأصلح .

خصومنا : يحاولون رمينا بالشهوات . وبالشبهات . .

فى محاولات لحذف خصائص الأمة . . حتى تصير بلا هوية !

الأمر الذى يفرض علينا العود الحميد إلى القرآن المجيد لنضبط خطوانا على حقائق القرآن الكريم . . . بيانا لعالمية الإسلام فى مواجهة عقدة الشعب المختار وتحديدا لمعالم أمتنا . . التى بها تبقى . . . وستبقى

وتبديدا لشبهة ضعفنا الذى يغرى خصومنا بأننا ضعاف . . .

ذلك . . . بأننا لم ننهزم . . . لماذا ؟

لأننا لم نحارب !!!

والذى حدث هو : انهزمت فينا خصائص أمتنا . . . أخلاقها . . .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ونقرأ هنا قوله عز وجل :

﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر]

معنى :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾

سمع الشيخ بائع الثلج يصرخ فى دروب القرية :

ارحموا من يذوب رأس ماله

ارحموا من يذوب رأس ماله !!

فقال الشيخ على الفور :

إنه يفسر قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ بمعنى :

إنا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى نقص من الأجل

إن وقت العصر . . . جزء من النهار :

وهو الجزء الباقى . . .

وكأنما يقول لنا : العبرة بالخواتيم . . . فالبدار . . . البدار . . قبل أن ينصرم النهار .

[إن ساكن هذه الدار على غاية الخطر . . فكان نعيمه فى غاية الكدر] :

والعصر هو الفرصة الباقية . . . فيجب اغتنامها قبل الرحيل :

صرفا للهمة إليه . . وقصرا للنشاط عليه !

والناس صنفان :

أكياس . . وأرجاس . .

ولأن الأسباب الداعية للآخرة . . . خفية .

ولأن الأسباب الداعية إلى الدنيا . . ظاهره .

فترى جلهم يعرض عن الغائب .

ويؤثر الظاهر . . . مع أنه فان .

والقسم هنا بالعصر :

في وقت يكون التكليف فيه شاقا . لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار.

والمطلوب ختم النهار بالطاعة . .

وكما أقسم عز وجل بالضحى بشارة . .

فإنه يقسم هنا بالعصر : نذارة . . . .

إن الإنسان في « خسر » :

في خضمّه . . وليس في حواشيه .

ثم هو في « خسر » منكّر : فهو خسر عظيم : يحيط بالإنسان :

الإنسان : كخانة مفرغة من الإيمان

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء : ١] والمفروض أن يكون المسلم عند حسن الطن به :

فإن له عينا تلحظ . . وذهنا . . يفهم ، فليستعذ مما كان عليه . . وليحمده على ماصار إليه .

لا سيما وفي معنى « العصر » معنى ، التصفية كقولهم :

اعتقده أي : خلصه . . مما لا يتم إلى بقيمة الصبر الجميل . . وهذا مما لا ينسى أبدا :

إن المسلم الحق لا ينسى لا لأن ذاكرته عصية على النسيان . . بل لأن الذكرى عصية على النسيان .

والسورة الكريمة هنا تذكره بدوره فى هذه الحياة :

وهو : إذا حل فى أرض بناها مدائنا .

وبأى شئ يبنيها ؟

بهذه الخصائص :

١- الإيمان

٢- العمل الصالح

٣- التواصى بالحق

٤- التواصى بالصبر

أجل بهذه العناصر . . التى بها تتحدد الشخصية . . وهو بسببها مستثنى من قاعدة الخسران .

ولا تقول السورة الكريمة : إلا الذى آمن وعمل الصالحات . . ولكنها تؤثر ضمير الجماعة . . إشارة إلى ضرورة التعاون بين كل أفراد المجتمع لتثبيت هذه الأركان . . عن طريق التواصى بها : تواصى الذين « آمنوا » أى صار الإيمان ملة لهم .

ويؤثر السياق لفظ التواصى ليحقق أمرين :

أ- محاولة تكميل الغير بعد تكميل النفس . . وذلك يعنى توفر القوة العملية والقوة النظرية معا .

ب ـ وتعنى كذلك : الرفق فى النصيحة . وإيثار اللين . . والفرار من منطق الأمر والنهى .

التواصى بالصبر

والذى يهمنا هنا هو :

التسلح بالصبر . . ثم التواصى به . . .

فى صحبة يقين حازم بحكمة البلاء التى يجب إدراكها

(فللبلايا نهايات معلومة الوقت عند الله عز وجل :

فلا بد للمبتلى من الصبر إلى أن ينقضى أوان البلاء .

فإن تقلقل قبل الوقت .. لم ينفع التقلقل :

كما أن المادة إذا انحدرت إلى عضو . . فإنها لن ترجع فلا بد من الصبر إلى حين البطالة :

فاستعجال زوال البلاء مع تقدير مدته . . لا ينفع.

فالواجب الصبر : وإن كان الدعاء مشروعا ، ولا ينفع إلا به إلا أنه لا ينبغى للداعى أن يستعجل . بل يتعبد بالصبر والدعاء والتسليم إلى الحكيم . ويقطع المواد التى كانت سببا للبلاء :

فإن غالب البلاء أن يكون عقوبة .

فأما المستعجل : فمزاحم للمدبِّر .

وليس هذا مقام العبودية . . وإنما المقام الأعلى هو : الرضا والصبر . . والمطلوب : كثرة الدعاء .

والاعتراض حرام . والاستعجال مزاحمة للتدبير) [صيد الخاطر : ٨٤]

وبئس رجل يسرّه ما يضرّه :

والعاقل يدرك هذه الحقيقة : مادام عمرنا ينقصى هكذا كل يوم . . فلنتزود لآخرتنا بالعمل الصالح نزين به أنفسنا . .

ثم التواصى بالحق والصبر : نزين به غيرنا .

بالحق وهو: الإيمان ثم بالصبر على أداء هذه الأعمال الصالحات .

وعلى المبتلى أن يكون دائم الملاحظة للمقامات . . .

هذه الملاحظة التى تؤكد له أنه فى غيابها : أعلى البصيرة وأن اجتهاده سوف يحفى قدميه . . . ثم لا يكون إلا ما قدر الله تعالى .

من فوائد الصبر :

قالوا :

[إنه خلاصة الإنسان وسره . .

وزبدته وعصارته .

الذى لا يوصل إليه إلا بضغط الإنسان نفسه . وفسرها على أفعال الطاعة . وقهرها على لزوم السنة والجماعة .

حتى يصير الصبر عليها عادة وصناعة].

وبه يفر المؤمن من الأوهام الباطلة . والخيالات العاطلة .

ولابد للداعية من أن يكون أصبر على الشدائد :

يقول عز وجل :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .... ﴾ [طه : ٣٢] .

فلم يقل واصبر . . . وإنما «واصطبر» وما فى حرف الطاء من ثقل يشير بضرورة أن يكون الداعى أجمل صبرًا .

عزة الفقير

يقول عز وجل :

﴿ .... فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ [البقرة : ٨٤] .

قال المفسرون :

إنما أصناف الطعام للمسكين . .ليدل على أن الطعام ملك له :

إنه حقه . .

وحقه المعلوم.

والمعلوم من قبل الرازق سبحانه . . وإذن فلا منّة لواجد على فاقد !!

تأثر العربى بالقرآن

ونذكر من دقة العربى وحساسية ذوقه المتأثرة بالقرآن .

سأل الرشيد الفضل بن الربيع عن حزمة خيزران . ما هذا !

فقال الفضل : هى عروق الرماح ولم يقل خيزران . لأنه اسم أم الرشيد

وهكذا تتولى النساء كبر اللت والعجن . .

اللت والعجن لافى المطبخ . . ولكن خوضا فى أعراض النساء .

[وأظن أنه بخروج المرأة للعمل فى الديوان خرجت معها أسرار البيت]

خطورة اللسان :

وعندما أراد الحكيم أن يضع يده على أحسن ما فى الإنسان وأسوأ ما فيه . .

لم يجد إلا اللسان الذى يملك عبقرية البناء . . وعبقرية الهدم معا .

ألا وإن آثار الجوارح محـدودة؛ فالعين لا ترى إلا الألوان . والأذن لا تسمع إلا الأصوات . أما اللسان فهو عام شامل.

شرف العلم:

يقول عز وجل :

﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء : ١١٣] .

والآية دليل على شرف العلم :

أولا : لأن العرب تقدم المفضول . . وتؤخر الفاضل وقد تأخر العلم هنا . .

وإذن فموهبته من العلم أفضل من موهبته من الإنزال .

ثانيا : قال البقاعى :

[وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل].

ويوضح الرازى ذلك بقوله :

[وعلمك ما لم تكن تعلم من أخبار الأولين فكذلك يعلمك من حيل المنافقين . ووجوه كيدهم ما تقدر به على الاحتزار عن وجوه كيدهم ومكرهم] ثم قال :

﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء: ١١٣] .

وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب .

وذلك لأن الله تعالى ما أعطى الخلق من العلم إلا القليل كما قال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥] ونصيب الشخص الواحد من علوم جميع الخلق يكون قليلا .

ثم إنه سمى هذا القليل عظيما حيث قال :

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥] .

وسمى جميع الدنيا قليلا حيث قال :

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء : ٧٧] .

وذلك يدل على غاية شرف العلم

كان يضرب . . بالعز بن عبدالسلام المثل . . حتى قيل :

ما أنت إلا من العوام . . ولو كنت العز بن عبدالسلام !

حاول فى الطواف أن يصحح للطائفين بعض الأخطاء . .

ولكنهم رفضوه . . لأنهم لا يعرفونه . . .

فلما لبس عمامة العلماء . . استمعوا له . .

ثالثا :

العلم : مصحح للنية . .

والنية : مصححة للعمل .

« والحكمة »

أى : الفهم لجميع مقاصد الكتاب . . . فتكون أفعالك وأفعال من تابعك فيه على أتم الأحوال . فتظفر بتحقيق العلم وإتقان العمل .

وعملا بقوله :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء ١١٣] أى :

من المشكلات . وغيرها : غيبا وشهادة من أحوال الدين والدنيا ـ البقاعى .

[لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين] .

المؤمن غر كريم . . . بينما المنافق : خب لئيم . .

والمؤمن فى ضوء نوره الذى يسعى بين يديه : إذا لدغ من جحر مرة . . تظل التجربة محفورة فى أعصابه . . فلا يلدغ من هذا الجحر نفسه مرة أخرى . .

وبالتالى . . ومن باب أولى :

لا يلدغ المؤمن من الشيطان . . مرتين أو هذا ما ينبغى أن يكون !

من حلمه عليه السلام

خاصم الزبير رجلا أنصاريا شهد بدرا . . فى مسيل ماء كانا يسقيان منه نخلهما . فقال ﷺ للزبير :

« **اسق يا زبير .. وأرسل إلى جارك** ».

فقال الرجل :

أن كان ابن عمتك !!!

فتلَوّن وجهه ﷺ [تلَوّن فقط] ثم ضيق عليه فقال :

« **اسق يا زبير ..ثم احبس الماء** ».

ابدأ بمن تعول

« أن تذر ورثتك أغنياء خير . . . . »

إن الشحاذين المحترفين تعودوا السؤال فعلا ومردوا عليه . . وصاروا بقعة فى

« الثوب الأبيض » بهذا الإلحاح . . .

فلا توسع هذا البقعة بإضافة ورثتك إليهم فلتبق لهم ما يغنيهم ويعفيهم من هذا الهوان .

فلبدأ بمن تعول :

بأقربائك :

فإن لم تفعل

١- تسىء إلى نفسك

٢- سوء توزيع للثروة

٣- خلل فى بناء الأسرة

خلاف لا يفسد قضية الود :

فى خيبر :

طلب ﷺ رأى أصحابه فى مصالحة اليهود على عشر أرضهم .

لكن الصحابة رأوا عدم المصالحة ، بعدما عز الإسلام . فيما يشبه أن يكون مثل موقف عمر رضى الله عنه من المؤلفة قلوبهم .

إنه الخلاف . . ولكن : حماية للدين .

وليس هذا الخلاف على الدنيا : فى مجتمع عرف كل واحد حقه . . كما عرف حق غيره . .

السوق

والسوء

كان ﷺ إذا دخل السوق قال : **« اللهم إنى أسألك خيرها ، وأعوذ بك من شرها وأعوذ بك أن تكون منى يمين فاجرة . أو صفقة خاسرة »** .

(السوق : يذكر ويؤنث)

والشُّهد : العسل فى شمعها . . .

والعسل : مؤنث .

ليس كل ما يشتهى . . . يشترى

الرحمة الحازمة

روى مسلم :

من قتل « وزغة » بالضربة الأولى فله كذا . .

وإن قتلها بالضربة الثانية فلة كذا . . . وله دون الأولى .

وإن قتلها بالثالثة . . فله دون الثانية

تعليق :

مع أننا مأمورون بالتخلص من كل حشرة ضارة . . لكننا محكومون بأدب الإسلام الذى يحض على الإحسان والحد من الألم والتعذيب ما أمكن !

الحياة الأجمل
والحياة الأكمل

خذ مثلا :

عتبة بن ربيعة . . . وولده « أبو حذيفة » : فقد آثر عتبة الحياة الأجمل :

حياة الرياش والتفاخر . .

بينما اختار ولده « أبو حذيفة » الحياة الأكمل فسبقه إلى الإسلام . . وكان الظن أن يكون الأمر بالعكس .

وبعد غزوة بدر : سُحب الوالد إلى القليب مهانا . . فنظر ﷺ إلى حذيفة قائلا بعدما رآه وقد تغير لونه وبكى :

« لعلك قد دخلك من أمر أبيك شيء » !!

فقال حذيفة :

لا والله يارسول الله : ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه .

ولكنى كنت أعلم منه رأيا وحلما وعقلا . .ورجوت أن يسلمه ذلك إلى الإسلام فلما رأيت ما أصابه . وتذكرت ما مات عليه من الكفر . وما ينتظره من العذاب . . أخرتنى ذلك !

فدعا له ﷺ . وقال له خيرا .

من معانى الموقف :

١ - أن عتبة كان فعلا « ذكيا » لكنه لم يكن عـاقلا . . ولو كان عاقلا ما سبقه ولده إلى الإسلام .

إنما العاقل هو : تلك المرأة التى ادعت أن الولد ولدها لكنها تركته لمن ادعته ولدا لها . . فرارا من شقه نصفين .

٢ - ولا حظ من حكمـة القيادة : أن الرسـول ﷺ لم تسكره نشوة الـنصر عن تفقد أحوال جنده .

٣- وهذا سر حب جنده له .

فقد يضمن القائد احترام جنده له . .ولكنه لا يضمن حبهم له .

٤-مع أن الولد مسلم . .والوالد كافر . .إلا أن قيمة البر مازالت باقية . .

من أخلاق القائد

فى بناء الصحابة للمسجد :

كان كل صحابى يحمل لبنة . . .لبنة . . .

لكن عمارا كان يحمل لبنتين . .لبنتين !!

فرآه ﷺ فجعل ينفض التراب عن نفسه ويقول :

يا عمار :

« ألا تحمل ما يحمل أصحابك ».

قال : إنى أريد الأجر من الله

فقال ﷺ : « **إن عمارا مليئ إيمانا من قرته إلى قدمه** » .

حقوق الجار :

قال ﷺ « **والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن** » ، قيل : ومن يارسول الله ؟ قال : « **الذى لا يأمن جاره بوائقه** » .

من هو الجار :

١- رفيق السفر .

٢- زميل الدراسة .

٣- جار السكن : الملاصق أو المواجه .

٤- من جمعتك به صحبة : جمعتكما على أمرها . . كشركة مثلا .

يقول النووى :

(إذا أثنى على الرجل جيرانه كلهم فهو رجل سوء) .

ونقول :

هذا فى المجتمع المنحرف :

قد يثنى الناس على الجار المداهن الذى يجامل الجميع فلا ينقد أحدا . . أما فى المجتمع الصالح . . فالإجماع على نبل جار معين . . قد يكون مفقودا . .

لأن من نبل هذا الجار . . . أنه يرمى بالنّبل كل من كان فظا غليظ القلب . .

ومن أجل ذلك . . . فلا تبقى له كلمة الحق صديقا بمدحه !!!

ألا إن الإجماع على مدح الجار . . منقوض بأن هذا الإجماع غير موجود حتى بين الإخوة فى بيت واحد !!!

فى مجال التطبيق:

وقد كان ﷺ يبدأ بالإحسان على جاره اليهودى . . . وكان ذلك كافيا فى إيناسه .

والأمة على الطريق :

يحكى أن ابن أبى الجهم أراد أن يبيع داره لضائقة مالية حلت به ، وكانت داره بجوار سعيد بن العاص ، فأعطاه المشتري فيها مائة ألف درهم فقال للمشتري : هذا ثمن الدار، وبكم تشترى جوار سعيد بن العاص ؟ فقال المشترى : والله ما رأيت جوارا يباع ؟ ولكن ما شأن جارك ؟ فقال ابن أبي الجهم : إن جاري سعيد بن العاص رجل يحب معاونتى . . إن غبت سأل عنى ، وإن أتيت رحب بي ، وإن سألته أعطانى ، وإن لم أسأله ابتدأنى بالعطاء .

فلما بلغ ذلك سعيدا بعث إليه بالثمن وأبقاه في داره .

من حقوق الجار المقيدة

ومن حقوق الجار : ألا تمنعه من أن يدق خشبة فى جدارك . .

والمقصود هنا بالتوجه : هو الجار صاحب الجدار وإذا كفل لك الشرع ذلك الحق . . ثم فعل صاحب الجدار أجمل ما يليق به فأذن لك . . فلتعمل أنت أيضا : أجمل ما يليق بك : فدق خشبة . . ولا تدق مسمارا . . وإن كان مسمار ولا بد فعلى شرط ألا تؤذى جارك . .

فلتقابل الإحسان بالإحسان .

ومن الحقوق :

ألا تستطيل عليه فى البنيان إلا بإذنه . . فقد يكون فى هذا التطاول حجبا للريح عنه . . فلا بد من إذنه .

من أسباب الإحسان
إلى جار السكن بالذات

أولا:

أ - هناك مصالح مشتركة"

ب - واتصال مباشر

ج- ولديه من أسرارك ما يساومك عليه .

د- ثم هوأول من يخف لنجدتك

وثانيا : تكفى مشكلاتك الأسرية الداخلية . . .

فلا تفتح على نفسك جبهة خارجية . . .

وثالثًا : إيذاء الجار إيذاء لنفسك .. فالله عز وجل يقول : ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات : ١١] (فإذا رميت أصابنى سهمى) .

ورابعا : من تلمزه له عينان . . وله كذلك لسان وشفتان . . . فاتق الثأر منه !!!

تأملات فى الحديث الشريف :

١ - من الذى يقسم ؟

٢- وكم مرة؟

٣- وبأى اسم يقسم ؟

الذى يقسم هو : الرسول ﷺ . . .

ولا شك أن ماحمله على ذلك هو إحساسه بخطورة القضية . وتساهل الناس فى تناولها .

ولهذا السبب يقسم ثلاثا : تأكيدا وتنبيها للغافلين .

ثم هو يقسم بلفظ الجلاله : الله عز وجل .

والواجبات درجات :

ولكل جار حق . .وأولاهم بالبر : الأقرب بابا

حقوق مطلق الجار :

من دروس التربية :

تشويق المدعو . .ليقبل على ما يُدعى إليه . وذلك بقوله ﷺ ابتداء : « **والله لا يؤمن** .. » مع التكرار .

ولا حظ قوله ﷺ :

« **لا يأمن جاره بوائقه** » فقد يؤذى الرجل جاره . . .ثم يعتذر ويزدجر . . ويتوقف عنده مسلسل الأذى . .

ولكن التهديد ينفى الإيمان ينصبّ أساسا على جار « شرير » :

قد لا يوقع الأذى فعلا . .لكن جاره منه فى قلق دائم . . يتوقع منه الشر دائما.

فهو بسبب توقع الشر منه متوتر الأعصاب دائما . . وهذا كاف فى باب الإيذاء.

ما الذى ينفيه الحديث ؟

إن المنفى عن الذى يؤذى جاره . . .ليس عرضا دنيويا . .يمكن الاستغناء عنه. . .وإنما المنفى هو : الإيمان الذى به وجودك . . وفى ضياعه شقوة الأبد .

والبوائق هى : الشرور.

أما الأشياء اليسيرة : فمعفو عنها من الطرفين كليهما .

أما بعد : فيقول الله عز وجل :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .... ﴾ [الحجرات : ١٠] .

تمهيد :

فى امتحان عابر حول معنى الأخوة وأبعادها . .قال الرجل الصالح لصديقين :

أيدخل أحدكما كم يده فى كم أخيه فيأخذ حاجته ؟

قال : لا . . .

فقال الشيخ :

إذن . . . فلستما بأخوين !

ومن معانى ذلك أن الأخوة لاتتم إلا إذا ذهبت الكلفة ..وصار الأمر على ما قال الرافعى :

لاتتم المودة بين اثنين . . إلا إذا قال أحدهما للآخر : يا أنا !!

وهكذا كانت الأخوة . . زمان . . يوم كانت القلوب عامرة بالإيمان .

الإيمان : الجامع المانع . .

هذه الأخوة التى لم تكن فقط شعارا أودثارا . . وإنما كانت واقعا ملموسا كان الأصدقاء يتزاورون .

وكانوا يتزاورون غبا . . فازدادوا حبا . .

فإذا حدث وزاروا أخا لهم . . فلم يجدوه . . فتحوا الدار . . ثم أكلوا . ما وجدوه . فإذا حضر صاحب الدار كان أسعد منهم بهذه الأخوة التى رأى من آثارها تلك الثقة . وهذا الظن الحسن به .

ولكن هذا التسامح . . محكوم بقيم الإسلام . .

الإسلام الذى زين لصاحب الدار أن يسعد بما رأى . . لكنه إذا اغتصبت حبة قمح من بستانه عبثا . . ضاق صدره .

سدّ ذرائع الفتنة

« **إذا اختلفتم فى الطريق فاجعلوه سبعة أذرع** » حديث شريف .

والذراع : خمسة وأربعون سم .

والمعنى : إذا اختلفتم . . . ووصل بكم الاختلاف إلى طريق مسدود :

فاجعلوه سبعة أذرع .

مثلا : مواقف للسيارات وللمشاة . . وسترًا للعورات . .

والتحديد هنا خال من الصور البيانية .

لأن المواقف فيها خلاف . . فلا بد من الأسلوب القانونى فى الموقف المحدد .

أما المواقف الإنسانية . . فلا بأس من الأسلوب البيانى . . الفضفاض .

سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام تزوج سارة ـ إسحاق عيسى ويعقوب وكانا توأمين، وهاجر ـ إسماعيل ، ويعقوب وكانا توأمين .

فاختلف يعقوب مع أخيه . . الذى ولد قبله بلحظات .

فتوعده بالقتل .

فسار يعقوب إلى خاله بالعراق :

وكان يختبئ بالنهار . . ويسرى بالليل .

ومن هنا : سمى «إسرائيل» .

من رحمة الله بأمتنا

« إن الله غفر لأمتى ما حدثت به نفسها ما لم تعمل أو تكلم » .

ومعنى ذلك :

أن لها عالماً رحبا . . واسعا . . وبلا حدود : عميقا . . بلا قرار . .

ولديها ردود فعل مختلفة لكل ما ترى . وما تسمع وإلى هنا . . لا خيار . . فلا مسؤولية . .

ولكنها إذا عملت . . أو تكلمت كانت مسؤولة . . لأنها إذا عملت أو تكلمت . . يمكن أن تقلد . .

ولذلك لُعن المعدّ لمجلس الخمر كشاربها . . لأنه من الشرب قاب قوسين . . **وهو يتقلب بين الشاربين !**

ولك أن تتصور : لو أن كل إنسان عمل بما فكر ؟؟

سوف تتحول الحياة إلى غابة !!

وواجب المسلم : التصدى لخواطر السوء بالذكر الذى به تطمئن القلوب .

طوبى للغرباء .

مقصود الحديث :

١ ـ ترويض للدعـاة . . حتى يستنفروا كل قوامهم لرحلة شاقة مضنية . . ومعركة مستمرة مع القيم العفنة .

٢ ـ وإن الأمل فى النصر دائم لا يخبو :

٣ ـ ثم هو عزاء وسلوى . .

٤ ـ إن الداعية «كشاف» : بمعنى : كن مستعدا . .

الفرض .. والنفل .

يقولـون :

من شغله الفرض عن النفل . فهو معذور

ومن شغله النفل عن الفرض . . فهو مغرور

لماذا الفرض أولا ؟

١ ـ إن الثوابت أوتاد الأمة .

٢ ـ والفرض أصل . . والنفل فرع .

٣ ـ احترام الآمر .

٤ ـ وتعظيمه .

٥ ـ صدق العبودية .

٦ ـ الفرائض : لهـا عقـاب وثواب ، والنوافل : ثواب فقط قـال ﷺ لمن سأل مرافقته فى الجنة : « **أعنى على نفسك بكثرة السجود** » « وهى نوافل» .

٧ ـ بعد أداء الفرائض يـزداد الشوق بالموالاة . . فتتجـه النفس بدافع هذا الشوق

إلى المزيد تنفلا .

[وهذا سر موافقته ﷺ الرجل على الاقتصار على الفرائض] .

[كنت سمعه . .] .

أى :

كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه فى الاستماع ومن بصره فى النظر . ومن يده فى اللمس . ومن رجله فى المشى .

قدم السمع .. لماذا ؟

الإعاذة : درء مفسدة .

والعطاء : جلب منفعة

والدرء أهم

ثم إن الإعطاء سهل فلا يحتاج لتأكيد

المساءة :

يكره سكرات الموت . . لا الموت نفسه . [وإلا فهو الذى يذهب بالعيب إلى الحبيب] .

وهذا شرف لأوليائه : لدرجه أنه تعالى لو أراد أن يعفيهم من الموت الذى حتّمه على عباده . . لفعل !

كما تقول : من أجله أفعل المستحيل !!

من معانى القسم :

« والذى نفسى بيده . . »

« روحى بيده . . الآن . . إن شاء أمسكها . .

وإن شاء أطلقها . . وفى هذا اليمين مزيد تأكيد»

قالت عائشة رضى الله عنها :

هذه يمين رسول الله ﷺ .

وإنها لصدى لقوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] بالتأكيد .

أ ـ مشروعية اليمين . .

ب ـ الله تعالى يقسم . .

جـ ـ تأكيدا للخبر . . وصولا إلى ثقة المخبرَ .

د ـ تذكير بالله وتعظيم له . .

هـ ـ قال الإمام أحمد :

لأن أحلف بالله كاذبا . . خير من أحلف بغيره صادقاً . .

فحلفه بالله تذكير وتعظيم . .

وكذبه يعاقب عليه .

أما الحلف بغيره . . فشرك .

الفكرة للشيخ الجزائرى :

من أسرار القسم فى الفرق بين «والله العظيم» و«الذى نفسى بيده» .

الأول : يؤمن بالله تعالى : قادرا مهيمنا . .

والثانى : هذه القدرة والهيمنة متحققة فعلا . . فأنا فعلا فى قبضته تعالى . .

وإذن فنسبة الخشوع أكبر ! .

من حكمه الجواب :

قال رجل لابن عقيل :

قد أنغمس فى النهر أريد التطهر .

ولكنى أشك أن الماء لم يصل إلى بعض أعضائى .

فقال له :

اذهب . . فلست ممن فرضت عليهم الصلاة ، فلما سئل قال :

هذا مجنون . .

ولا صلاة لمجنون !!

لقد توضأ ﷺ :

مرة . . مرة . .

وتوضأ . . . اثنين . . . .

وتوضأ ثلاث مرات

ومن تعدى ذلك :

فقد أساء

وتعدى

وظلم

بضاعتنا ردت إلينا :

كان الفتى منبهرا بالدراسات الغربية . . والتى تسللت إلى كل مجالات المعرفة . . وألمت بكل أسرار النفس الإنسانية . .

وكان آخر ما انبهر به قولهم هناك :

يذكر الناس ١٥ ٪ مما يسمعونه ، وخمسين فى المائة . . مما يرون . .

وثمانين فى المائة . . مما يفعلون . .

حتى قال حكيمهم :

[تأتى المعرفة عن طريق العمل :

فإذا لم تفعل . . فلن تتعلم أبدا .

وقلت للفتى :

هذه بضاعتنا ردت إلينا :

فقد قال علماؤنا :

إذا أردت حفظ الحديث . . فاعمل به . .

وفى مجال التطبيق : كانت أم «سفيان» تقول له :

اذهب إلى الشيخ . . فإذا وجدت نفسك غير قادر على العمل بهذا الحديث . . فلا داعى للعلم وأنا أنفق عليك من مغزلى !!

وإن قدرت فامض على بركة الله .

كان الشيخ يعلق على حديث . . « **من كان حالفا فليحلف بالله** . . » واستشهد بقول القائل :

لأن أحلف بالله كاذبا . . خير من أحلف بغيره صادقا . .

ذلك بأن الحلف به سبحانه توحيد . . والكذب كبيرة . . يمحوها التوحيد .

فلما سئل :

أحيانا أستمع إلى برنامج دينى ممتاز .

لكن هناك لحظات موسيقى بين الفقرات . . .

فكان الجواب : محاضرة فى حرمة السماع وكان عليه أن يلحق هذه بتلك .

فمن أجل التوحيد هناك . . قلنا الكذب كضرورة . .

فلماذا لا نقبل سماع الموسيقى هذه اللحظات من أجل مجلس العلم ؟!

لاسيما ونفس المستمع معلقة بحقائق العلم . . وليس فيها مستمع للسماع ؟! .

موقف عصيب :

دعا . . «عُـقبـة» . . الرسول ﷺ إلى طعام . . فـاعتـذر ﷺ عن الأكل حتى

يسلم . .

فأسلم .

فعاتبه صديقه " أبى بن خلف »

فقال له «عُقبة» معتذرا :

كان فى بيتى . . وكان كذا . . فاستحييت .

فقال له «أبى» :

لن أكلمك حتى تؤذيه .

ففعل .

فقال له ﷺ :

« لا أراك خارج مكة إلا علوتك بالسيف » .

وقد كان . . فأمر عليا بقتله .

[وخرج من صلبه «أم كلثوم»

وقتل . . أبى فى أحد .

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان (نجى قريبان من القطب) .

من عبر الاسراء :

[قول الملائكة للنبى ﷺ : مرحبا به أصل فى استعمال هذه الألفاظ وما ناسبها عند اللقاء .

نحو أهلا وسهلا ومرحبا . وكرامة . وخير مقدم وأيمن مورد . ونحوها .

ووقع الاقتصار منها على «مرحبا» وحدها :

لاقتضاء الحال لها .

فإن الترحيب هو السعة . وكان قد أفضى إلى واسع الأماكن .

ولم يطلق فيها سهلا . لأن معناه : وطئت مكانا سهلا والنبى ﷺ كان محمولا

إلى السماء .

بدائع الفوائد ج٣ / ٢٠٥ .

لابن قيم الجوزية .

روى البخارى ومسلم عن أنس :

[أن عبد الله بن سلام سأل رسول الله ﷺ عن أمور لا تعلم إلا بالوحى .

فأجابه ﷺ عنها .

فقال عبد الله على الفور .

أشهد أنك لرسول الله ثم قال : يا رسول الله :

إن اليهود قوم بُهت [١]. فاسألهم عنى قبل أن يعلموا بإسلامى .

فجاءت اليهود فقال النبى ﷺ :

« **أى رجل عبد الله بن سلام فيكم** » .

قالوا : خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا .

فقال النبى ﷺ :

« **أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟** »

قالوا : أعاذه الله من ذلك .

فأعاد عليهم . فقالوا مثل ذلك .

فخرج إليهم عبد الله فقال :

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

قالوا : شرنا وابن شرنا . وتنقصوه] .

إذا انتهى أحدكم إلى المجلس . . فليسلم فإذا قام فليسلم .

فليست الأولى أحق من الثانية .

---

(١) بهت : بضم الباء وتسكين الهاء : جمع بَهُوت . مثل : صبور وصُبر وباهته : استقبله بأمر يقذفه به وهو منه برىء . فيبهت منه وهو مركب من : الكذب . والوقاحة .

المراد بالأولى :

إعطاء الأمان . . بمعنى :

ما جئتكم معتديا . . فهى أمان

والثانية تعنى :

وما تركتم قاليا . ولا كارها

وهذه كرامة

« كفى بالمرء كبرا أن يحدث بكل ما سمع » رواه مسلم عن أبى هريرة .

إنه إثم واحد . . ومع ذلك فقد بلغ من خطورته أنك لو اتصفت به . . ولم تكن لك معصية سواه . . لكان كافيك .

ما هو الواجب هنا ؟

١ ـ هذه الأخبار التى تسمعها . . لابد أن تعرضها على العقل . .

العقل . . الذى يفرز الصادق من الكاذب . .

٢ ـ ولا بد أيضا من عرضها على الضمير . . بعد عرضها على العقل :

لماذا ؟

حتى يتدخل الضمير . . ليمنع أولا : نشر الكاذب . . .

ثم يمنع أيضا نشر الصادق . . إذا كان فى نشره تخذيل للأمة . . أو تجريح الإنسان .

محمد ﷺ أكبر من عظيم عن تعريف عام ١١٤٣ بتصرف

ربما شهر عظيم بأنه :

عظيم العقل . لكنه فقير فى :

العاطفة . . والبيان . .

وقد يكون بليغا . . لكن ضعيف الفكر .

وقد يكون إداريا قائدا . . لكنه لا أخلاقى . .

أما الرسول ﷺ

فقد جمع الفضل من أطرافه :

ما من عظيم إلا وفى حياته مثالب يسترها . .

أما محمد فإنه أمر بنشر كل سيرته . . حتى آيات عتابه . .

ولم يحدث أن تجرأ عظيم وقال للناس :

أذيعوا كل أسرارى !

وعظمة العظيم

إما بالمزايا الشخصية وكان عظيم المزايا وبأعماله عظيم الأعمال وبآثاره عظيم الآثار .

أمين على الرسالة بدليل تنفيذ الحد فى المخزوميه وهى :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**بينا أنا نائم رأيتني في الجنة فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت : لمن هذا القصر ؟ قالوا لعمر بن الخطاب. فذكرت غيرتك فوليت مدبرا**» . فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله !

قال محمد عبده :

على المسلمين أن يثبتوا أولا أنهم غير مسلمين .

وقال أجنبى أسلم أخيرا :

الحمد لله الذى عرفنى الإسلام قبل أن أعرف المسلمين ؟؟!!

ظواهر اجتماعية .. عالجها الإسلام

قال ﷺ :

« **يسب بنوآ دم الدهر . وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره** » .

قد يخفق الإنسان فى تحقيق أمل . .

فيسخط على الزمان . . ويحمل الأيام مسؤولية فشله . .

وهذا عجز . .وتقصير . .وفشل . . وتنصل من المسؤولية . .

من شأنه إشاعة روح الانهزام والتواكل . .

من أجل ذلك .. يمنع الشرع من سب الدهر :

وكأنه يقول لهم :

إذا كنتم تسبون الزمان باعتبار أنه سبب متاعبكم . . فسبكم موجه إلى فاعل الأشياء وهو الله عز وجل وحده . . لا الدهر . .

فإذا سببتم الدهر . . فإنكم تسبون الفاعل الحقيقى وهو الله عز وجل .

ومقصود الحديث :

نقل الناس من حالة الركود والتواكل . بذم الدهر . .

إلى حالة من أخذ النفس بالجد والعمل .

فى العفو :

« إذا التقى الرجلان المسلمان فسلم أحدهما على صاحبه .

فإن أحبهما إلى الله :

أحسنهما بشرًا لصاحبه .

فإذا تصافحا نزلت عليهما مائة رحمة .

وللبادى منهما تسعون .

وللمصافح عشرة[٢] رواه البزار فى الترغيب رقم ٤٠٠٩ .

« إن المسلم إذا صافح أخاه تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر » رواه البزار فى الترغيب برقم ٤٠٠٧ .

إن المؤمن إذا لقى المؤمن فسلم عليه .

وأخذ بيده فصافحه تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر

رواه الطبرانى فى الأوسط .

ورواته لا أعلم منهم مجروحا ٤٠٠٦ .

وفى رواية :

. . فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة .

فى يوم ريح عاصفٌ .

وإلا غفر لهما . ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر رواه الطبرانى بإسناد حسن ٤٠١٠ .

خيرية المؤمن :

إن أمره كله له خير :

قد يصمم على شر . . ثم لا يفعله . . فهو خير . .

وقد يعزم على خير ثم يفعله . . فهو خير .

وإسرائيل اليوم : تفعل . . ثم لا تؤجر ؟ !! وتأمل :

لقد تمنى « أحمد ياسين » الشهادة . . فحققتها له إسرائيل ولكنها حسنة لن تؤجر عليها !!

لقد مات أحمد ياسين . . ولكن كان فى موته حياته ، حياته : التى غابت لتطلع فى أفق آخر . .

أما غيره . . فهو ميت وإن كان حيا بيننا !!

من حكمه العقوبة :

يقولون : فى قطع يد السارق قسوة !!

ونقول لهؤلاء :

لو لم تقطع يد السارق . . ثم تركناه فى السجن . . ماذا يحدث ؟

سارق «البيضة» سيقابل سارق «الجمل» وسوف يتجرأ الأول . . ويتعلم . .

أما القطع فهو :

قطع لدابر الجريمة وفى نفس الوقت إصلاح .

الاعتراف بالجميل :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

«لا تسبوا أصحابى . لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده : لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» (١) .

تمهيد :

كان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، أكثر شبها برسول الله ﷺ .

وقد أنشأ ذلك فى ضميره إحساسا بالمسؤولية عميقا :

فلقد تحمل من الأعمال مالا يطيق . . تحت ضغط شعوره بأنه يشبه الرسول ﷺ .

كان من المنفقين فى سبيل الله تعالى . . الذين يبذلون ولا يخشون من ذى العرش إقلالا . .

ولم يكن إنفاقه المال كافيا لراحة باله . واستقرار حاله . . لكنه كان ينفق من أعصابه التى ضيّق عليها . . حتى لا ينفلت عيارها . . حين كان يختلف مع صاحب له . . فيرضى أن يكون عبد الله المشتوم . . لا عبد الله الشاتم ! .

وهذا الحديث الذى نحن بصدد التعليق عليه شاهد على ما نقول : فقد اختلف ابن عوف وخالد ، رضى الله عنهما ، فى شأن فسبه خالد .

وسكت ابن عوف . .

وانبرى ﷺ يدافع عن أصحابه فى شخصه منوها بما قدموا للأجيال من أعمال . . وما بذلوا من تضحيات .

هذه التضحيات العظام . . والتى مهما بذلنا فى سبيل الله . . . فلن يكون إلى جانب ما بذلوه . . إلا صفرا على الشمال !

نبرة التحذير :

ومع أن التشاتم حينئذ لم يكن ظاهرة اجتماعية . . بل كان حالات فردية فرضتها

---

(١) رواه مسلم ج١٦/ ٩٢ ـ كتاب الزهد ـ [والمد : كيل يساوى رطلا وثلثا]

ظروف طارئة . . فما كان للمؤمن أن يكون سُبّبه . .

ومع أن الشاتم صحابى جليل له رصيده من الأعمال الكبار . . والثواب العظيم بما قدمت يداه . . . وأنه رجّاع إلى الله وقّاف عند حدوده . .

مع هذا فإن لهجة الرسول تبدو عالية . وشديدة . .

أ - بدليل تكرار النهى . . . لاتسبوا . . . لاتسبوا .

ب ـ ثم القسم بقوله ﷺ : « والذى نفسى بيده » وما يشى به من رهبة تشعُر بأن النفس فى قبضة الله تعالى ـ وهو قادر سبحانه على إحباط مفعولها فى جسم الإنسان . . الآن إنه تعالى قادر على الإمساك بها . . فلا تعودُ إليه .

ويقسم ﷺ . . . مخاطبا الأجيال المقبلة من خلال خالد رضى الله عنه بأن أحدا من الناس لو أنفق مثل جبل أحد . . . وكان المُنْفق ذهبا . . . فلن يبلغ ثوابُ ذلك . . ثواب نفقة واحد من أصحابى : مدا . . أو نصفه ! (والمد : رطلان تقريبا) .

ويضرب الرسول الأمثال للأصدقاء اليوم :

الأصدقاء : الذين قد تجرى مشاعرهم فيهبون للدفاع عن كرامتهم المفترى عليها . . لكنهم . . وعندما تُخْدش كرامة الآخرين . . لايثورون لها . . بنفس الحماس . . ثم هو ﷺ يؤكد قاعدة اجتماعية هى : إذا لم يتسع حبك لصديقك . . حتى يشمل من يحبون هذا الصديق . . فإن فى قلبك خللا !!!

فإذا كنتم تحبون الرسول ـ وإنكم لكذلك . . . فمن تمام حبه أن تحبوا أصحابه لماذا التحذير .

أولا : إنهم رموز الأمة التى شبت عن الطوق بسواعدهم . . تحت لواء الرسول ﷺ .

ثانيا : وكان إنفاقهم فى سبيل الدعوة فى وقت الضرورة . وقد سبق درهم ألف مائة درهم وذلك ما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ .... ﴾ [الحديد : ١٠] !

ثالثا : ما كـانوا يتمتـعون به من خلال : الـشجاعـة . والزهد . والتواضع . والإيثار .

ورابعا : ولقد رصدوا ذلك كله حماية :

أ - للرسالة .

ب ـ وللرسول .

ولكم أن تتصـوروا ماذا كان يحـدث لو بدأ الإسلام بأمـثالنا اليوم . .لتـحكموا بالخسـارة التى كانت ستـمنى بها الحيـاة . .وتدركوا حجم الـنعمة المتـمثلة فى هؤلاء الرجال العظام .

وإذا منع الصحابى ـ مع رصيده الضـخم من الأعمال والأخلاق - إذا منع جرح شعور صحابى مثله . .فكم تكون خطيئتنا نحن اليوم حين نتحرش بهذه القيم . .بينما لا رصيد لنا هناك .

ونتساءل :

حكم سب الصحابى ؟

قال العلماء : يعزر . . يغيب من مجتمع لم يحافظ على أصوله وعدوله .

وقال بعض العلماء :

بل يقتل !

فحرمة الصحابة مصونة . وذمتهم لا تمس . .

حتى أولئك الذين لابسوا الفتن منهم : لأنهم كانوا متأولين . .مجتهدين

المجترؤون على الحق :

ومن العجب أن تسمع اليوم من يقول لك :

إنه عند نزول القرآن . . لم تكن هناك مؤسسات دينية تحتكر فهم القرآن . .

وإنما كان هناك ناس عاديون . .استقبلوا القرآن فاستفادوا . . .وأفادوا . .

ثم يقولون تدعيما لذلك :

لقد كان عثمان . . قماشا . . وكان على . . صبيا . . . رضى الله عنهما . .

وما ضر عثمان . . وما ضر عليا . . أن كان الأول قماشا . . وكان الثانى صبيا لكن استخدام المصطلح بما يحمل من إيحاءات عصرية . . ينم عن جرأة لامسوغ لها على رجالنا العظام . . تجافى ما يجب للصحابة من توقير واحترام . .

وأمتنا . . على مدار الزمان تعرف أن عثمان كان : ذا النورين . . وأن عليا كرم الله وجهه .

وهما من قلوبنا فى المكان المكين . كفاء ما قدموا لهذا الدين

يرى الإمام مالك رحمه الله :

أن من كان فى قلبه غيظ على الصحابة رضوان الله عليهم - الذين أغاظ الله تعالى بهم الكفار فقد كفر .

قيل : وفيه نظر .

الحساب قبل الحساب !

كان الفتى يسارق من حوله النظر : فإذا رآهم غافلين عنه . . سارع ففعل ما لم يأذن به الله . .

فلما خلا له الجو . خاض فى الآثام ووضع . . ظانا أنه وحده ولا يراه أحد . غافلا عن أنه فى نقطة الضوء : وكل صغير وكبير مستطر . . وسوف يحاسب عليه فى يوم يجعل الولدان شيبا . .

واقتربت من الفتى الغافل عن مستقبل سيكون شره مستطيرا . . وقلت له :

إذا ما خلوت الدهر يوما . . فلا تقل خلوت . . ولكن قل : على رقيب . .

إن الشاعر هنا يقول لك :

إذا ما وجدت نفسك وحدك فى مكان . . فلا تظن أنك وحدك :

فالله معك : رقيب عليك :

﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ . . . ﴾ [الرعد : ١٠]

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧]

ومهما حاولت التخفى : فالرقيب سبحانه وتعالى قاهر فوقك :

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ [الأنبياء : ١١٠]

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى : ٧]

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الملك :١٣]

وتلك هى الحقيقة التى تدعو من أدبر وتولى . . حتى يعود إليه رشده الغائب . هذه الحقيقة التى نبه إليها الحسن البصرى رحمه الله تعالى بقوله :

ما من يوم ينشق فجره إلا ناداك :

" أنا خلق جديد . وعلى عملك شهيد . . فاغتنمنى . . فإنى لا أعود إليك أبدا"

صاح : هل سمعت براع رن الضرع ما قرى من حلاب !!!

فهذا هو « الزمن » يشهد عليك . . وإن كنت وحيدا :

إنك لا ترى الزمن . . ولاتلمسه . . ولكنه بقدرة الله عز وجل . . سوف يكون كائنا حيا : له لسان ناطق . .

ينطق بما اجترحت يداك . . وعندئذ تسر الندامة . . وهيهات . . فلسوف ترى عاقبة أمرك .

هذه العاقبة التى تلقاك بما قدمت يداك . . ولتعلم أن هذا ظنك الذى أرداك . وليت شعرى :

لو علم أهل العاقبة اليوم . . ما خمت عليه القبور من الأجسام البالية .

والعظام النخرة . لاجتهدوا فى أيامهم الباقية خوفا من يوم .

تتقلب فيه القلوب والأبصار ، يجعل الولدان شيبا .

يؤخذ فيه بالنواصى والأقدام :

ومن أجل ذلك . . كان هناك عقلاء :

كلما زاد علمهم . . . تواضعوا

وكلما زاد عملهم . . . خافوا

وكلما زاد عمرهم . . . زهدوا

وكلما زاد مالهم . . . بذلوا

وكلما زاد جاههم . . قضوا حوائج الناس .

يفعلون ذلك ابتغاء مرضاة الله . . وشعورا منهم بأنهم فى دار الاختبار . . . وتفرض عليهم الحكمة أن يأخذوا من يومهم لغدهم . . ومن دنياهم لآخرتهم . . فى حساب مستمر يريدون به أن يكون غدهم أفضل من يومهم . .

وحتى لا تبعد النجعة .

وقلت للفتى الغافل:

ولماذا تذهب بعيدا . . وآى القرآن الكريم تؤكد هذه الحقيقة : حقيقة أنك أبدا لست وحدك . . وإنما عليك . . الرقيب . . سبحانه :

وذلك قوله عز وجل .

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس : ٦٥] .

من دروس السنة

عن أنس رضى الله عنه قال (١) :

كنا عند النبى ﷺ . فضحك ، حتى بدت نواجذه ، قال :

«أتدرون مما ضحكت ؟» قلنا : لا . . يارسول الله . . قال : « من مخاطبة العبد ربه يقول :

يارب : ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى .

فيقول العبد :

إنى لا أجير على إلا شاهدا منى ، فيقول الله عز وجل :

(١) أحمد ومسلم والبزار والبيهقى فى الأسماء والصفات .

كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا . وبالكرام الكاتبين شهودا .

قال : فيختم على فيه .

ويقال لأركانه : انطقى . . فتنطق بأعماله :

ثم يخلى بينه وبين الكلام . فيقول :

بعدًا لكنّ وسحقا . . فعنكن كنت أناضل

ولاحظ من فقه الآية الكريمة ما يلى :

١- إذا كانت القاعدة فى الدنيا هى :

البينة على من ادعى . . واليمين على من أنكر . .

إذا كانت القاعدة هذه . . فإن الأمر فى الآخرة : يختلف :

فقد يحلف المذنبون وهم كاذبون : ومن أجل ذلك تشهد عليهم جوارحهم.

٢- وفى قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ :

أ - بضمير الغائب : إعراضا عنهم واستهانة بهم .

ب - ثم كان الختم على « الأفواه » لاجزائهم على الكذب فى الآخرة .

كما كانوا جرآء عليه فى الدنيا ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [المجادلة : ١٤] كما أشرنا آنفا . . . أما بقية الجوارح فإنها تعلن شهادتها أمام كل من حضرمن :

الإنس والجن . والملائكة : تقول : اعلموا أن صاحبى كان يعمل بى كذا وكذا.

مع الإصرار : فاستحق بذلك النار . وغضب الجبار . . ثم يقذف به فيها .

٣- ثم . . تكلمنا أيديهم : بمعنى أنها :

تتكلم بإرادتها . . فلا شبهة للجبرهنا . . وهى ما يمكن أن يتذرع به المفترون عندئذ

ثم نقرأ قوله عز وجل فى سورة الفرقان :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا

وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [١٧-٢٣]

يقول المفسرون :

(إن الحواس الخمس هى : السمع . والبصر . والشم . والتذوق . واللمس .

وآلة المس هى : الجلد .

وقد ذكر الله تعالى هنا ثلاثة أنواع من الحواس هى :

السمع . والبصر . واللمس .

وأهمل ذكر نوعين هما : الذوق والشم :

فالذوق : داخل فى اللمس من بعض الوجوه :

لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان مماسة لجرم المطعوم .

وكذلك الشم :

لا يتأتى . . حتى تصير جلدة الخنك مماسة لجرم المشموم .

فكان بذلك داخلا فى جنس اللمس .

أما لماذا خص الجلود بالذكر ؟ فقد أجابوا : بأن مباشرة المعاصى من جهتها أكثر . . وهكذا تموج الجوارح بعضها وياله من عذاب مهين . تحاول الجوارح فيه الاعتذار بأناما نطقنا بملكنا . . ولكن أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء .

وعندئذ يفرض الحق نفسه فى هذا اليوم العصيب :

والمعنى :

(إثبات أنهم كانوا يستترون عند الإقدام على الأعمال القبيحة . . إلا أن استتارهم ما كان لأجل خوفهم من أن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم) وإنما كان لأنهم كانوا منكرين للبعث والقيامة .

لقد كان ذلك الاستتار لأجل أنهم كانوا يظنون أن الله سبحانه لا يعلم الأعمال التى يقدمون عليها) على سبيل الخفية والاستتار .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

كنت مستترا بأستار الكعبة . فدخل ثلاثة نفر على : ثقيفان . وقرشى :

فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما تقولون ؟ ! فقال الرجلان :

إذا سمعنا أصواتنا . . سمع - وإلا لم يسمع . . فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزل : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ ﴾ [فصلت : ٢٢] .

عندما يغيب العقل :

وهذا هو الجزاء الأوفى لكل من أهمل نعمة العقل الذى يصير المرء فى غيابها جامد الإحساس : فلا يخاف ربه ولا يرجوه :

قال أحد الحكماء :

استصلح نفسك بعقلك . واجعل نظرك وتفكرك بمنزلة المرآة : فتدرك بها ما التبس من أمرك .

فالعقل : أفصح واعظ . وأحرس حافظ .

وبالعقل أدرك الناس معرفة الله تعالى . قال الله سبحانه :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان : ٢٥] .

فصديق المرء : عقله ، وعدوه : جهله :

فالعاقل : من عقله فى إرشاد . ومن رأيه فى إمداد . . والجاهل : من جهله فى إغواء . ومن هواه فى إغراء . . قال الشاعر :

من لم يكن أكثره عقله أمكله أكثر ما فيه

وقد فقد هؤلاء العقل . . . فأهلكتهم جوارحهم التى هى منهم

(إن العاقل حقا هو :

أحكم من الطبيب : فمن صح له يقينه . وسلم له دينه . فلا شىء يضيره ولا يشينه . . . ومن لم يعتبر تصرف الأيام . . غرق فى بحر الآثام ، فطوبى لمن جعل له من نفسه واعظا . ونصب عليه من الله حافظا) .

ولكن هؤلاء الغافلين لم يعتبروا . . . فكانوا عبرة للآخرين . . .

أصـــل الـــــداء

وأصل البلاء هنا هو إنكار الساعة !!

فماذا تنتظر من إنسان لايؤمن بيوم الحساب !!!

ولقد أكدت الآيات الكريمة كيف كان إنكار الآخرة وراء إنكار الحقائق الكبرى من مثل قوله عز وجل :

فى سورة الفرقان : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ [١١]

وفى سورةسبأ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ [٣]

وفى سورة فصلت : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [٥٠]

﴿ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى : ١٨]

وفى سورة الأعراف يقول عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ [١٤٧]

وفى سورة هود يقول تعالى : ﴿ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ [٢٢]

وفى سورة النحل : ﴿ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [٢٢]

وفى سورة النمل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [٤]

وفى سورة الزمر: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ [٤٥]

وفى سورة النجم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ ﴾ [٢٧]

وفى سورة المدثر: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴾ [٥٣]

ومن هؤلاء الضالين من خدعهم قادرين: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ [القصص: ٧٩] . فتأمل كيف كان إنكار الآخرة مستنفعا هذه بعض إفرازاته :

١ـ جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا .

٢ـ أنكروا أن يكون الرسول بشرا : يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

٣ـ قلوبهم متأبية على الحق الذى ترفضه بلا نقاش مستكبرة على الدعاة إليه .

٤ـ زينت لهم أعمالهم : فرأوا حسنا ما ليس بالحسن !!

٥- وأكبر الخطايا : اشمئزازهم بذكر الله الذى بذكره تطمئن القلوب .

٦- ولأنهم لا يخافون . . فهم جرآء على الحق متحدُّون له . . . ومن ثم كانوا من الضلال فى القاع البعيد .

والإيمان بالآخرة هو الدواء .

وإذا كان الكفران بالآخرة أصل الداء . فإن الإيمان بها هو الدواء : يقول عز وجل فى سورة الأنعام : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [٩٢] وفى سورة لقمان يقول تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٤ ، ٥]

وفى سورة الإسراء : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [١٩] وفى سورة يوسف : ﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [٥٧] وفى سورة الشورى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ [٢٠]

وفى سورة الأعلى : ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [١٧] .

فالمؤمنون بالآخرة هم المرشحون للإيمان كما يجب أن يكون .

وإنهم سائرون فى الدنيا على هدى : نورهم يسعى بين أيديهم . . ثم وفى النهاية يصعون على سناه إلى الفلاح . . فكان سعيهم مشكورا مأجورا . . يزرى بكل ما يحقق الفارغون فى الدنيا من متاع كان رغوة عائمة . . ثم ذهب هباء . . . فى الوقت الذى يزيد الله تعالى فيه المؤمنين من خيره ما يبقى .

ذلك بأنهم لما علموا أن هناك بعثا ونشورا وحسابا . . حاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا . . ووزنوا أعمالهم وأعمارهم قبل أن توزن عليهم . . فخف حسابهم . . . وثقل ميزانهم .

إيجابية المسلم :

ولا يعنى ذلك فرارهم من الدنيا وهروبهم من ساحاتها :

فليس من مصلحة الإسلام أن يهرب المسلم من الدنيا . . تاركا إياها للمسرفين الذين يمتلكونها . . . ويصرفون شؤونها . .

والمطلوب هو : أن يكون المسلم حركة دائبة . . شريطة ألا تغيب الآخرة عن وعيه . . لتظل غاية نشاطه المبارك .

على نحو ما قال لقمان الحكيم .

(خذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك : تقدمه لآخرتك : ولا ترفضها كل الرفض فتكون على الناس عيالا . وعلى أعناق الرجال كلاّ) وعلى هذا الأساس مضت وصايا العلماء العالمين . . فقالوا :

(ليس الحرج فى أن يتصرف الإنسان فى طلب حظه من الدنيا فيما لابد له منه ولاغنى له عنه)

فليصرف الإنسان إلى دنياه حظا من عنايته . . لأن بها يتزود لآخرته ،

قال مجاهد فى قول الله عز وجل : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ [الشرح : ٧]

قال :

أى : إذا فرغت من مؤنة الدنيا . . فانصب فى العبادة . .

ومن حكم عمر رضى الله عنه محذرا من التواكل والعجز :

(ليس خيركم من عمل لآخرته وترك الدنيا . . أو عمل للدنيا وترك الآخرة ولكن خيركم : من أخذ من هذه . ومن هذه .

والخرج : فى الرغبة فيما تجاوز قدر الحاجة . وزاد على حد الكفاية . . فإنها فضول لا تجدى . وزوائد لا تنفع ولا تغنى .

وقد ترك العقلاء فضول الدنيا . . فكيف الذنوب !!!

ألا إن [ترك فضول الدنيا من العقل . . وترك الذنوب من الفرض]

من عقلاء الأمة :

وقد حفل تاريخنا الإسلامى برواد كانوا عقلاء . فحمدوا السرى . ومنهم ذلك

العابد .

والذى كان من أمره :

أنه حفر فى فناء داره حفرة . . كأنما هى القبر .

وعندما يأتى المساء يتمدد فى هذه الحفرة . . وأنه من الحساب قاب قوسين أو أدنى . . ثم يتسمع فإذا نفسه كأنما تقول له : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]

فإذا فرغت نفسه : نهض من قبره . . ثم خاطب نفسه قائلا :

ها أنت ذى قد رجعت . . فهيا فاعملى صالحا !

وهكذا افعل . . ثم كان يكرر ما فعل . . حتى كان كأنما يعيش أخراه . . بينما لم يزل فى دنياه . . فاستطاع أن يشغل نفسه بالقول السديد . والعمل الصالح فرارا من هول ذلك اليوم الذى تجد فيه كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . .

وفى الوقت الذى يلاقى فيه الجاحدون جزاءهم : عذاب شديد . . إذا بهؤلاء فى مغفرة من الله ورضوان : وصدق الله العظيم :

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا ﴾[القصص: ٨٣].

﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٢١] .

رواد على الطريق :

ومن رحمة الله تعالى أن كان من جنوده رواد يدعون إلى الآخرة . . بهذا الحداء الذى يذكرهم بالآخرة قبل أن يذهب الناس فى الأرض حيارى : ومنهم ذلك القائل:

من كان يعلم أن الموت مدركه

والقبر مسكنه والبعث مخرجه

وإنه بين جنات ستبهجه

يوم القيامة . . أوتار ستنضجه

فكل شيء سوى التقوى به أسمج

ومـــا أقام عليه منه أسمجـــــه

ترى الذى اتخذ الدنيا له وطنًا

لم يدر أن المنايا سوف تزعجـــه

تظل على أكتاف أبطالها اتقا

وهابتك فى أغمارهم المناصـــل

وترجع أعقاب الرماح سليمة

وقدحطمت فى الدارعين العوامل

فإن كنت تبغى العيش . . فاقنع توسطا

فعند التناهى يقصر المتطاول

حقا : يوقع زوالاإذا قيل : تمّ !!

وهذا واحد من هؤلاء ، الرواد . الداعين إلى الآخرة . .بالتذكير بما يفعل الناس عنه من حقائق الحياة .

وحتى يكشف المـؤمن عن ساق . ويشمـر عن ذراع . .ليأخذ مـكانه فى موكب المسارعين إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

يا جامع المال : ما أعددت للحفر .

هل يغفل الزاد من أمس على سفر ؟!

أفنيت عمرك فى اللذات تطلبها

وَاخيبة السعى : بل واضيعة العمر !!

قف فى ديار بنى اللذات معتبراً

وانظر إليها ولا تسأل عن الخبر

ففى الذى فعلت أيدى الشتات بهم

من بعدا لقتهم . .معنى لمعتبر !

حكى د. محمد رجب البيومى قال :

الفقية إبراهيم الحربى رحمه الله كان له ولد شاب تفقه على يديه فى مواد التفسير والحديث وسارت له شهرة تنبئ عن أنه سيخلف أباه فى مقامه العلمى بعد رحيله ، وسيتولى الإمامة والتدريس فى مسجد بغداد الأعظم ثم مرض الشاب فجأة وعاجله الموت بعد أيام ، فأخذ تلاميذ الإمام الحربى يواسونه فى مجلس العزاء ، ولكنهم وجدوه متماسكا غير حزين ، يسأل كلا عن أحواله كما اعتاد ، فتجرأ أحدهم وقال: يا إمام نحمد لك صبرك على هذه النائبة ولكن لا إلى هذا الحد .

فابتسم الإمام وقال للحاضرين : والله إنى كنت أتمنى أن يموت منذ عام وقد حقق الله رجائى بموته ، فاندهش الناس وتساؤلوا عما يكن الرجل من أسرار ، فقال: رأيت منذ عام فى منامى ، أنه قد نفخ فى الصور ، وقام الناس فزعين ليوم الدين ، وقمت مع القائمين وقد اشتد بى الحر ، وغرقت فى بحر من العرق ، ورأيت على بعد حوضا كبيرا من الماء وعلى شاطئه أناس يسقون الظامئين ، فتقدمت أسأل أحدهم كوبا من الماء فابتسم وقال : ليس لك مكان لدينا نحن أولاد الذين فارقوهم فى الحياة فصبروا على قضاء الله فإذا جاء والد لأحدنا عرفناه فأسقيناه . . فقمت من نومى حائرا وأنا أقول ليس لى ولد يسقينى من الحوض ، فلما أذن الله برحيل ولدى ، تذكرت الرؤيا ، وفرحت ولم أحزن لأنى سأراه على الحوض يوم القيامة فى لظى الحر وأجد ولدى ينتظرنى هناك !

نزلت هذه القصة على قلب الوالد المسكين منزلة الشراب العذب من الظامئ الملتاع ، فقام وعانق المتحدث وكانت كلمته الوجيزة أبلغ من خطبة منبرية تقال فى مجلس العزاء دون تأثير .

إن الإيجاز فى العظة مع إصابة الهدف يترك تأثيرا فى النفس لا تبلغه الخطابة الثرثارة ، وأذكر أن الإمام الحسن البصرى ، وهو أبلغ الدعاة فى عصره قد شيع جنازة مع الناس ثم بدأ فى الرجوع بعد انتهاء مراسيم الدفن ، فقال له الناس : عظنا يا إمام ، فوقف على مكان مرتفع نسبيا ، وتطلع فى وجوه القوم ، وقال : أسألكم سؤالا لابد من الإجابة عليه ! لو قام هذا الميت من قبره ورجع معنا كما سنرجع . . فهل سيقترف ذنبا بعدما شاهد من أمارات اليقين ؟ فقال الجميع : لا يا إمام ، بل

سيتوب توبة خالصه فقـال الإمام : وها نحن الآن قد رجعنا بعد دفنه ، فليفرض كل واحد أنه رجع مـن قبره ! ثم ترك المكان فكـان حديثه الموجـه أبلغ من كل خطاب ! وفى مرض موته قيل لمعروف الكرخى ألا توصى !!!

قال : أوصيكم بعد موتى أن تتصدقوا بقميصى !!! :

فإننى جئت الدنيا عريانا . . وأريد أن أغادرها عريان !!

وهكذا عـاشت الآخرة فى وجـدانهم . . فى الوقت الذى كـانوا يأكلون فيـه مما عملته أيديهم . . فلم يحملوا منه من أحد :

والشباب على الطريق :

روى عبد العزيز بن أبى حازم ، عن أبيه ، عن سهل بن سعد قال :

تلا رسول الله ﷺ قوله عز وجل :

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤]

وغلام جالس عند رسول الله ﷺ فقال :

بلى ، والله يا رسول الله : إن عليها لأقفالها . ولا يفتحها إلا الذى أقفلها .

فلما ولى عـمـر بن الخـطاب رضى الله عنه . . طلب هذا الغـلام ليستـعمله . . وقال : (لم يقل ذلك إلا من عقل) .

وتأمل كيف يسمع عمر رضى الله عنه مقـالة هذا الفتى . . ثم تحفر فى أعصابه . وتستقـر فى ذاكراته سنين عددا . . حتى إذا صار خليـفة للمسلمين . . بحث عن هذا الشاب ليسند إليه عملا . .

من مواعظ الصالحين :

وقد كان هنا من يذكر الناس الذين عاشوا فى وادى النسيان :

مر « الحسن البصرى » بشاب وهو مستغرق فى ضحكه مع رفاق له . فقال له :

يافتى : هل مررت بالصراط ؟؟ قال : لا . .

فقال : فهل تدرى إلى الجنة تصير . أم إلى النار ؟ قال : لا

فقال له : فما هذا الضحك ؟ قال الراوى :

فما رؤى هذا الفتى بعدها ضاحكا !!

ويبدو أن هذه الفكرة كانت متشبثة بالحسن رحمه الله . . ولطالما ركز عليها :

ففى «البصرة» وجد الحسن ناسا يضحكون فى « المصلى » فكان مما قاله : (العجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى فاز فيه المحقون وخسر المبطلون : ولعمرى : لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه . . ومسىء بإساءته عن : تجديد ثوب ، أوترجيل شعر) .

وكان « عطاء السلمى » من الخائفين . . قيل له فى مرضه :

ألا تشتهى شيئا ؟ فقال :

إن خوف جهنم لم يدع فى قلبى موضعا للشهوة .

وقد كانوا يتدارسون الموعظة إيجابا وسلبا .

قيل لبعضهم :

بعض الناس إذا وعظ . . خوّف وأبكى وبعضهم يتلكم ويبكى . ويخوّف . . ولا يبكون لماذا ؟

قال بعضهم : ليست النائحة الثكلى كالناتجة المستأجرة !

وهذا واحد من المذنبين يشكو حظه ، ويعلن تقصيره فيقول :

أيها الرفيق المؤانس ، والصاحب المُلابس إلى متى تطالبنى بالكلام فى هذا النمط وأنا على ما تعرف من ضيق صدر ، وتَقَسُّم فكر ، وغروب لب ، وذهول بال، وتشتت رأى ، وخاطر عقيم ، وفؤاد سقيم ، ومصائب فى الدين والدنيا متوالية، وآفات فى الصباح والمساء متواترة ؟ لا جرم إن وعظت استحييتُ من الله من قلة اتعاظى ، وإن هديْت خجلتُ من شدة ضلالى ، فإن بينت قطعت عن البيان سوء استبانتى . فإذا كان كلّى وبالا على ، كيف يكون بعضى فائدة لغيرى ؟ إلى الله نشكو ما حل بنا منا . فقد والله طالت البلوى ، واشتدت النجوى وقلت الدعوى ؛ فإنه أولى من شُكى إليه وأحق من توكل عليه .

أما بعد :

فقد كان عثمان يبكى كثيرا عند القبور . . .

فقيل له :

لم لا تبكى هذا البكاء ، عند ذكرك الجنة أو النار ؟ فقال :

القبر أول المنازل .

فإن كان خيرا لله . . فما بعده خير منه . . وإن كان شرا . . كان ما بعده شر منه .

التقى سفيان الثورى . وفضيل بن عياض فتذاكرا . . فبكيا . . فقال سفيان : إنى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا أعظم مجلس جلسناه بركة !

فقال له فضيل : ترجو !!

لكنى أخاف أن يكون أعظم مجلس جلسناه علينا شؤما !!

أليس نظرت إلى أحسن ما عندك فتزينت لى به . .

وتزينت به . . فراءيتنى . . وراءيتك ؟!!

فبكى سفيان حتى علا نحيبه ثم قال : أحييتنى . . أحياك الله)

وإذا بكى العابدان الزاهدان . فى أمجد لحظات حياة حافلة بجلائل الأعمال . . فأجدر بنا أن تبكى على الغافلين اليوم . . الواغلين فى خمأة الخطايا .

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم . . . فأقم عليهم مأتما وعويلا .

من أمنيات الأبرار :

بل لقد اشتد هذا الإحساس حتى صار الندم على الحياة شرعة لبعضهم :

قال أبو ذر :

(وددت لو أنى شجرة تُعضد) .

وقالها أيضا طلحة بن عبيد [أحد العشرة المبشرين بالجنة]

وقال عمران بن حصين :

ودرت أن أكون رمادا تنسفه الرياح !!

وكان بكاؤهم على التفريط لا ينقطع :

بكيت لقرب الأجلْ

وبعد فوات الأمـــل

ووافد شيب طرأ

بعقب شباب رحـــل

شباب : كأن لم يكن

وشيب : كأن لم يزل

طوال بشير البقا

وحل بشير الأجـــــل

وأخيرا: أذكركم وأذكر نفسي بما قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما . . فلا تقل

خلوت . . ولكن قل على رقيب

ولاتحسبن الله يغفل ساعة

ولا أن ما تخفيه سوف يغيب

لهونا - لعمر الله - حتى تتابعت

ذنوب . . على آثارهن ذنوب

فياليت أن الله يغفر ما مضى

ويأذن فى توباتنا . . فتنوب

أقول إذا خافت على مذاهبى

وحل بقلبى للهموم نذوب

لطول جناياتى وعُظم خطيئتى

هلكت . . وما لى فى المتاب نصيب

ويذكرنى عفو الكريم عن الورى

فأحيا . . وأرجو عفوه وأتيب

فأخضع فى قولى وأرغب سائلا

عسى كاشف البلوى على يتوب